

تفسير قوله: **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةً الْبَحْرِ**

{ واسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شررا ويوم لا يسئون لا تأتيهم كذلك بل لو أنهم بما كانوا يفسقون { واسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شررا ويوم لا يسئون لا تأتيهم كذلك بل لو أنهم بما كانوا يفسقون } . قصة هذه القرية كان يخفيها اليهود لأنها سبة عليهم . وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم لهم بها ، وسؤالهم عنها مع أنه نبي أمي من معجزاته وأدلة نبوته؛ لأنه ما علمها إلا عن طريق الوحي . وسنذكرها ملخصة موجزة ثم نذكرها مفصلة في الآيات التي شرحتها . وقد ألمنا بهذه القصة في هذه الدروس في سورة البقرة في الكلام على قوله: { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَمَّا لَأْتُوا فَكَلَّمْنَا لَهُمْ كُتُوبًا فَذَرَوْهُم مَبْشُورِينَ } . فأيات سورة الأعراف هنا بسط وشرح لقوله في البقرة: { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَمَّا لَأْتُوا فَكَلَّمْنَا لَهُمْ كُتُوبًا فَذَرَوْهُم مَبْشُورِينَ } . وأكثرهم أنها قرية تسمى أبله قريب من العقبة على ذلك الشاطئ بين الطور ومدين . وأنها في زمن داود عليه السلام ، كان محرما عليهم الاصطيد في السبت كما تقدم في قوله: { لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } كان محرما عليهم صيد السمك يوم السبت ، وكان يشتد قرمهم إلى لحم السمك والقرم بفتحتن شهوة اللحم . وكان الله إفتنتهم فتنه؛ كان إذا كان يوم السبت جاءهم السمك على وجه البحر أفواجا أفواجا كالكبش البيض حتى يتمكن كل إنسان من أخذ ما شاء منه في أحسن حال وأسمنها ، فإذا غربت شمس يوم السبت تمنع في البحر؛ فلا يقدر على وجه البحر أفواجا أفواجا كالكبش البيض حتى يتمكن كل إنسان من أخذ ما شاء منه . ثم بعد ذلك اشتدت شهوتهم إلى اللحم؛ فصاروا يحتالون على السمك يوم الجمعة مثلا: فيجرون في الماء أحاديث يسيل فيها الماء ، فإذا انتهت حفروا حفرا عميقة ، فإذا جاء الحوت مع تلك الأحاديث المائية نزل في الحفرة؛ فلا يقدر على الرجوع فأخذه يوم السبت . وكان بعضهم فيما يقولون: يجعل في ذنب الحوت خيطا وبدق وتيدا على الشاطئ ، ويمسك رأس الخيط فيه فيبقى الحوت في الماء ممسكا بالخيط ، فإذا غربت شمس يوم السبت جاء وأخذه . فلما فعلوا هذه الحيل ولم يعالجهم العذاب كأنهم تجرأوا وتشجعوا ، وقالوا: لعل حرمة صيد السمك رفعها الله؛ لأنه لم يفعل بنا بأسا . فلم يزالوا يتدرجون وطائفة نهتهم عنه { قالوا مَعْدِرَةً إِلَى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } وطائفة قالوا للذين نهتهم: { لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا } . والله بين أن الذين اعتدوا في السبت عذبهم عذابا بنسبا وهو مسخهم قرده وقيل بعضهم خنازير كما يأتي تفصيله كما ذكرهم في قوله: { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُتُوبًا فَذَرَوْهُم مَبْشُورِينَ } وفي قوله: { وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا كَانُوا يَعْسِفُونَ } . والطائفة الذين نهت أنجاهم الله كما ذكره في قوله: { اتَّخَبْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ } وبغية الطائفة التي قالت: { لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا } . ذكروا عن عكرمة أنه كان يقول: إن ابن عباس ما كان يدري هل نجوا أو هلكوا؛ حتى أقنع عكرمة بأنهم نجوا فكساه حلة . ومن أظهر الأدلة في أنهم نجوا قوله تعالى: { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَمَّا لَأْتُوا فَكَلَّمْنَا لَهُمْ كُتُوبًا فَذَرَوْهُم مَبْشُورِينَ } فرتب بالفاء قوله: { فَذَرَوْهُم } بخصوص الذين اعتدوا وهؤلاء لم يعتدوا بل إنما لم يذكر عنهم أنهم نجوا ، ولما كانوا يفعلون هذا وصاروا يصطادون السمك علنا ونهاهم قومهم قال لهم قومهم: والله لا نساكنكم لانا نخاف أن ينالنا العذاب الذي سينزل عليكم . يذكر المفسرون في قصتهم أنهم قسموا القرية وبرزعمون أن الذين اصطادوا قريا من سبعين ألفا وأن الذين نهوا قريا من اثني عشر ألفا والله أعلم؛ فهي إسرائيليات لم يثبت فيها شيء . قالوا: فجعلوا بينهم حائطا وقسموا القرية بينهم نصفين لكل منهم مدخل ومخرج غير مدخل الثاني ومخرجه فمكثوا على ذلك ما شاء الله ثم لما كان ذات يوم فإذا قرية المعتدين لم يفتح بابها ولم يخرج منها أحد؛ فتسوروا عليهم الحائط فوجدوهم والعياذ بالله مسخوا قرده . فلما جاءوهم وفتحوا الباب فوجدوهم قرده . يذكر المفسرون أن الواحد من القرده يعرف نسبه من الأدميين الذين لم يمسخوا فيجئته ويتمسح به ويكي وأن الأدميين يقولون لهم ألم نهكم عن انتهاك حرمت الله؟ وأنهم يشيرون برءوسهم أن نعم هكذا . وسيأتي هذا مفصلا بحسب الآيات التي ذكره الله فيها من سورة الأعراف هذه وهذا معنى قوله: { واسألهم } يا بني الله قرأه أكثر السبعة: { واسألهم } وخفف بعضهم بنقل الحركة " وسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر " { حاصرة البحر } معناها مبنية على شاطئه في حضرته قريبا منه . وهي على ما يقوله أكثر المفسرين قرية تسمى أبله ؛ خلافا لمن زعم أنها مدين ومن زعم أنها طبرية ومن زعم أنها تسمى معنا ومن زعم أنها تسمى مقنى فكل هذا إسرائيليات ، ولكن أكثر الأخبار والروايات أنها أبله ؛ كما ذكرنا . وهذا معنى قوله: { واسألهم عن القرية التي كانت حاصرة البحر إذ يعدون في السبت } أسألهم عنهم حين { يعدون في السبت } { يعدون } معناه يجاوزون حدود الله ويتهكون أوامرهم باصطيد السمك يوم السبت { إذ تأتيهم } حين تأتيهم { حيتانهم } الحيتان جمع حوت وباؤه مبدلة من واو؛ لأن أصل الحوت ثلاثي واوي العين زيدت في جمعه الألف والنون وأبدلت الواو ياء لسكونها بعد كسرة كما في الميزان من الوزن والميعاد من الودع والميعات من الوقت . والحيتان يابؤه مبدلة من واو جمع حوت { تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم } السبت مصدر سبت اليهود سبتا إذا عظموا يوم السبت للانقطاع للعبادة فيه وترك صيد السمك؛ وهذا معنى قوله: { إذ تأتيهم حيتانهم شررا } { شررا } جمع شرار قال بعض العلماء: تأتيهم مقبلة؛ تأتيهم الحيتان مقبلة ظاهرة على وجه الماء كأنها صفوف كثيرة؛ حتى تستر وجه الماء من كثرتها؛ فالشرار على هذا بمعنى الظاهرة المقبلة على وجه الماء . والعرب تقول شرعت علي فلان فوجدته يفعل كذا معناه أقبلت عليه حتى قربت منه فوجدته يفعل كذا { ويوم لا يسئون } أي يوم لا يعظمون السبت لأنه يوم آخر من أيام الأسبوع لا تأتيهم؛ فتنه لهم وامتحانا { كذلك بل لو أنهم بما كانوا يفسقون } { بل لو أنهم بما كانوا يفسقون } معناه نخبرهم بسبب كونهم فاسقين؛ فقد ابتلوا بالطمع ولم ينجحوا . وقد ابتلوا بالخوف ولم ينجحوا؛ لأن ابتلاء الذي يميز ذهب الرجال من زائفهم هو الطمع والخوف فإن المحن الذي يظهر بها ذهب الرجال ويطهرهم إنما هي محن الخوف والطمع . وقد ابتلى الله أمة موسى بالخوف والطمع وابتلى أمة محمد بالخوف والطمع؛ فنجح أمة محمد ولم تنجح أمة موسى؛ لأن الطمع الذي ابتلى الله به بني إسرائيل هو هذه القرية التي ذكرنا . وسيأتي أنهم اصطادوا السمك في السبت فمسخوا قرده كما يأتي في قوله: { فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُتُوبًا فَذَرَوْهُم مَبْشُورِينَ } -والعياذ بالله-؛ لأنهم لم يصمدوا أمام الطمع ولم يقو بشكائهم أمام الطمع؛ بل ذابوا واماغوا أمام طمع شهوة اللحم . وكذلك لما ابتلاهم بالخوف في جهاد الجبارين وقال لهم: { ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترددوا على أدياركم فتقبلوا حاسرين } فجنبا ولم يشجعوا قال تعالى عنهم أنهم قالوا: { إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَحُهَا عَنْهُمْ جُبَّارِينَ وَمَا لَنَا نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا } وقد قالوا لنبيهم: { قَادَهُمْ أَتَتْ وَرَبُّكَ قَاتِلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } فلم يثبتوا أمام عواصف الطمع ولم يثبتوا أمام عواصف الخوف؛ بخلاف هذه الأمة الكريمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقد ابتلاهم بالطمع في نفس الصيد وذلك في غزوة الحديبية في ذي القعدة من عام ست . ابتلاهم الله وهم في سفر وائمة فرم أحدى شهوة إلى اللحم فسلم بأن يسر لهم جميع أنواع الصيد وهم محرمون كبير الصيد وصغيره من أنواع الوحوش والطيور وغير ذلك؛ فلم يمد رجل منهم يده إلى شيء من ذلك فنجحوا ولم ترزعهم عواصف الطمع بل ثبتوا أمامه ثبوت الرجال . وهذا قد تقدم في قوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ يَسْبِبْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَيَجْعَلْ أَعْيُنَكُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَأُولَئِكَ يَتَلَوَّنَا فِي الْأَفْهَامِ } . والله لقد تخلف عنك بالمدينة أقوام لو علموا أنك تلقى كيدا ما تخلف عنك منهم أحد ، ونحو هذا من الكلام . فثبتوا وصمدوا عند هذا الخوف العظيم ، وثبتوا أمام هذا الطمع العظيم بخلاف الإسرائيليين كما بينا . وكما جاء هنا في الأعراف من سقوطهم أمام الطمع ، وكما قدمنا في سورة المائدة من سقوطهم أمام الخوف . هذا معنى قوله: { إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شررا ويوم لا يسئون لا تأتيهم كذلك بل لو أنهم بما كانوا يفسقون } البلاء معناه الاختبار وهو يقع بالخير والشر؛ كما قال: { وَتَلَوَّنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّبِيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ولم ينجحوا في هذا البلاء إلا الذين عصمهم الله جل وعلا . ونرجو الله جل وعلا ألا يزيغنا الطمع ولا الخوف عن طاعته تعالى اللهم ثبتنا أمام كل زعازع ولا تردنا عما برضيك اللهم لا تجعل الطمع سبب ضلالتنا ولا تجعل الخوف سبب ضلالتنا واهدنا ووفقنا { رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حِسْبَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حِسْبَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } { رَبَّنَا اغْنُزْ لَنَا دُنُوتَنَا وَإِسْرَاقَتَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّطْ مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ } .